ماضى القرويين

بقلم العالم الشاب العارف السيد محمد علال الفاسى

لسنا نريد أن نعمد فى هذا المقال الى سرد تاريخ القرويين واستيعاب أهم الاطوار التى مرت عليها منذ استها فاطمة ام البنين عام ٢٤٥ هـ الى أن حازت شهرتها الذائعة التى تغنى عن الاشادة بذكرها ولكننا لا نرى بداً من ان نعرض على الانظار ولو صورة من صور الثقافة العلمية التى كونتها القرويون فى مختلف هاتيك الاطوار والروح العلمية التى بثتها فى أنحاء البلاد وتسربت منها الى ما وراء المحيط حيث اهدت الى مختلف امم الشرق والغرب حظاً من ثمار رجالها الذين خدموا المعرفة بكل اخلاص يحمله اليهم عديد الطلبة الواردين عليها من مختلف تلك الامم والمصدرين عنها أنضج تلك الثمار .

واذا كنا نريد أن نبحث فى تلك المادة الوحيدة التى كانت تكسب البلاد حياة راقية وروحا شاعرة وأدبا جما وعلما نافعاً لم نجد الا هذه الجامعة وفروعها فهى التى استطاعت - وحدها - أن تخرج لنا فى سائر الاجيال الماضية اولائك القادة أبطال المعرفة الذين نستنير اليوم بآدابهم ونستفيد من منتجات أفكارهم ونتمتع بما خلفوه من علوم وآداب . وهى التى استطاعت ان تعطى للعالم الادلة العملية على تكاتف العلم والدين . بما كانت تحتوى عليه من مختلف الفنون والعلوم سواء منها ما يتعلق بالدين او الدنيا . وبما كانت تنجبه من العلماء الذين لم يعقهم تمسكهم الشديد بالاسلام عن ان يفتحوا صدورهم لقبول كل شىء ودرس كل ما من شأنه ترقية الفكر واصلاح الضمير

واذا أردنا أن نسرد أسماء كثير من الافذاذ الذين كانت لهم اليد الطولى فى تلك الفنون عد ذلك منا استطراداً وخروجا عن الموضوع ولكنا نذكر على سبيل التمثيل . عبد الله بن حجاج صاحب الارجوزة فى الجبر والمقابلة المتوفى سنة ٦٠١ وأحمد بن شعيب الجزنائى الطبيب الاديب المتوفى سنة ٧٤٩ وأبا زيد الجادرى الفلكى الشهير المتوفى سنة ٨١٨ وعبد الله اليفرنى الحيسوبى الكبير المتوفى سنة ٨٥٦ وأبا عمران ابن العقدة موسى الصلتانى المتوفى سنة ٩١١ والفلكى محمد بن عمر المتوفى سنة ٧٩٤ والامام ابن البنا الفلكى الشهير والمهندس الفلاحى الكبير والفيلسوف الخطير المتوفى سنة نيف و ٧٢٠ ومحمد بن ابى القاسم ابن القاضى الرياضى المتوفى ١٠٤٠ وأبا العباس احمد المطرفى المعدل المتوفى سنة ١٠٠١ وأبا الحسن ابن عبد الواحد المتوفى سنة ١٠٥٢ صاحب المؤلفات القيمة فى الطب والتشريح والفلكى محمد بن احمد الصباغ العقيلى المتوفى سنة ١٠٧٦ والميقاتى المهندس الاديب عبد الوهاب ابن ابى حامد الفاسى المتوفى سنة ١٠٧٩ والفلكى أبا زيد البعقيلى السوسى المتوفى سنة ١٠٠٦ والشيخ الحكيم محمد ابن سليمان الرودانى مخترع كرة الدوائر الفلكية الشهيرة به المتوفى بالشام سنة ١٠٩٥ والميقاتى ابا الحسن الدادسى

المتوفى سنة ١٠٩٤ واسيوطى زمانه ابا زيد عبد الرحمن الفاسى الذى قال فيه صاحب الصفوة انه أعرف بكل فن من اهل كل فن مؤلف كتاب الاقنوم ومخطط الخرائط الجغرافية والفلكية الخالدة المتوفى سنة ١٠٩٦ وغير هؤلاء من الافراد الذين لم تحضرنا أسماؤهم

أما فى العلوم الدينية وفلسفة الكلام الاسلامية فهذا شىء فوق الحسبان لا يصل الى حد و لا يقف عند نهاية ناهيك بابن غازى والونشريسى وأبى زكرياء السوسى وأبى مهدى علال المصمودى وأبى عمران العبدوسى والقورى . وابى حامد العربى الفاسى . وعمه العارف بالله وابى السعود وولده محمد وابى حفص عمر وابى عبد الله ابن سودة واحمد المكيلدى واليوسى وغيرهم ممن لا يحصون كثرة ولا يوازون ذكراً وشهرة على أن القرويين لم تكن بالجامعة التى تبخل على الشعوب والممالك الاسلامية وغيرها بتعليم أبنائهم الذين يفدون اليها من اقطارهم الشاسعة رغبة فى التزود من معينها والكرع من ينابيع رجالها فقد قبلت عديداً من طلبة مصر وطرابلس وتونس والجزائر والاندلس وانكلترا وروما وغيرهم من البلدان وردتهم الى امهم حاملين من العلوم ما لا يسمعون له فى أوطانهم ذكراً ولا يجدون له أثراً ونحن ننقل هنا دليلا على ذلك فقرة من بحث يتعلق بالموضوع لمجلة (الهلال) المصرية فى آخر مجلدها الاول الصادر سنة ١٣١٥ فقد جاء فيه نقلا عن بعض علماء الروسيا « ان أقدم كلية فى العالم ليست فى اروبا كما كان يظن بل فى افريقيا فى مدينة فاس عاصمة بلاد المغرب سابقا اذ تحقق بالشواهد التاريخية ان هذه المدرسة كانت تدعى كلية قيروان (١) واسست فى الجيل التاسع للميلاد (اى الثالث للهجرة) وعليه فهى ليست فقط أقدم كليات العالم بل هى الكلية الوحيدة التى كانت تتلقى فيها الطلبة العلوم السامية فى تلك الازمنة - حيث لم يكن سكان - باريز واكسفورد وباردوبولونيا يعرفون من الكليات الا الاسم ولذلك كانت الطلبة تتوارد على كلية قيروان من انحاء اروبا وانكلترا فضلا عن بلاد العرب الواسعة الانخراط فى سلك طلابها وتلقى العلوم السامية باللغة العربية مع الطلبة الطرابلسيين والتونسيين والمصريين والاندلسيين وغيرهم ومن جملة من تلقى علومه فى هذه الكلية من الاوربيين (عزيرنا) والبابا (سلفستر) وهو أول من ادخل الى اروبا الاعداد العربية وطريقة الاعداد المالوفة بعد ان اتقنها جيداً فى هذه الكلية

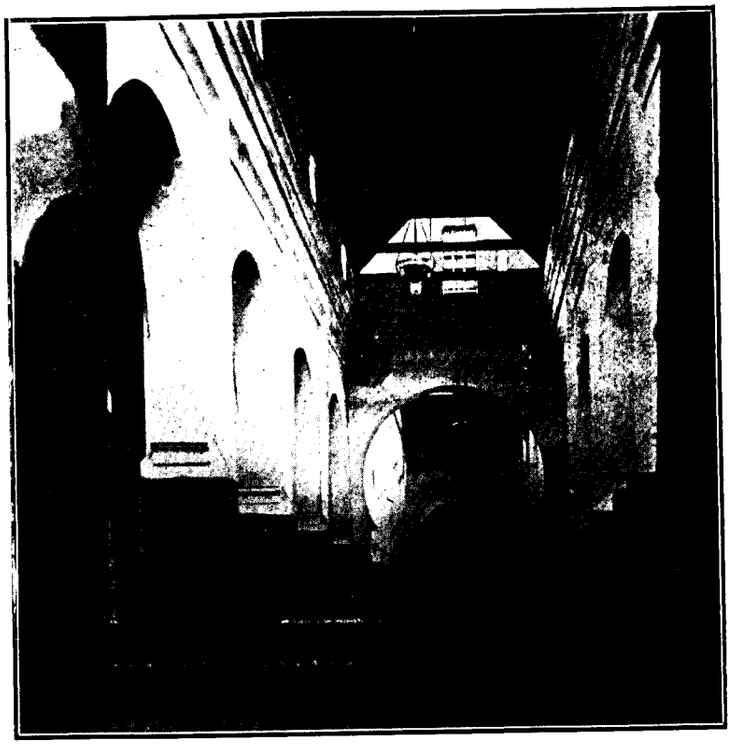

منظر داخل القرويين — عمل بوحصير

(١) يظهر ان هذا تغيير فرنجى لم يتقن الكاتب تعريبه والا فهى دائما كلية القرويين

كما يظهر من رسالته الى الامبراطور اتون مساعده التي أتى فيها على ذكر الصفر بقوله : انى اشبهك بالرقم الاخير من الاعداد البسيطة العشرية التى يزداد قيمة بوضع أعداد اخرى عن يساره »

ولم تخل القرويون فى عصر من عصورها السالفة عن هذه العلوم الحديثة التى نتعطش اليوم اليها تعطش الظمآن للماء البارد بل كانت دائما مورداً لكل فن ومصدراً لكل علم تنجب الطبيب والفلكى والرياضى كما تنجب المفسر والفقيه

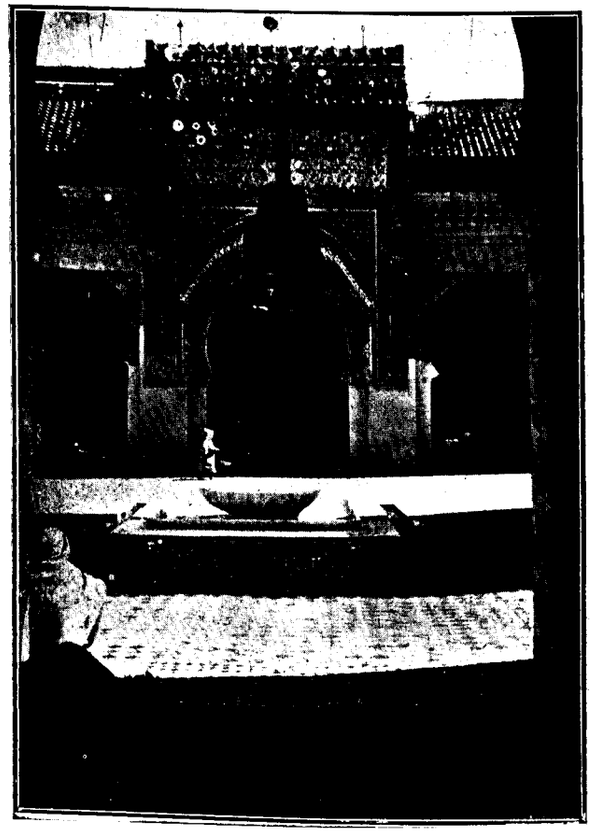

منظر صحن القرويين

عمل بوحصير

والاديب ففى غضون القرن الثالث عشر الذى يعد بحق عصر الاسفاف فى الافكار والانحطاط فى الهمم والتأخر فى المعارف كان بالقرويين رجال لا يستهان بهم علما واقتداراً وسعرفة بتلك الفنون كالفلكى الكبير أبى زيد عبد الرحمن بن يوسف الفاسى المتوفى سنة ١٢١٣ وأبى عبد الله محمد بن عبد السلام الفاسى الحيسوبى المقرى الكبير المتوفى سنة ١٢٢٤ والرياضي البارع أبى عباس احمد بونافع المتوفى سنة ١٢٦٠ والمهندس الطبيعى ابى بكر بن زياد الادريسي والمهندس الرياضى ابى العباس احمد الريفى وغيرهم . وناهيك بكون الامام سيدى محمد بن علي السنوسى تخرج فى هذا العصر من القرويين بعد ما درس عدة من هذه الفنون على رجالها الاكفاء كما يحدثنا عن ذلك حفيده السيد احمد الشريف الزعيم الطرابلسى فى سيرته التى ننقل عنها بواسطة الامير شكيب ما ياتى أثناء ترجمته لابى بكر بن زياد الادريسى المتقدم الذكر .

حضرته فى علوم كثيرة وقرأت عليه الفرائض والحساب والاربعين وصناعتهما . والاسطرلابين وصناعتهما والعلوم الاربعة والرياضية والهندسة والهيئة والطبيعة والارتماطيق واصول قواعد الموسيقى والمساحة والتعديل والتقويم وعلم الاحكام واليئس (بكسر النون) والوفق والقواعد الجفرية والاصول الزايرجية والبسط والتكبير والجبر والمقابلة وغيرها

فى هذه الفقرة الموجزة بيان يمكن ان ناخذ منه صورة مجملة عن الفنون التى كانت تدرس بالقرويين فى القرن الماضى وهو يثبت لنا ما ندعيه من ان القرويين لم تخل قط من هذه العلوم . ولا زال اعتناؤها بها فى طور من اطوارها السالفة وذلك ما يذكره كثير ممن تعرضوا للمغرب فى كتابتهم من الاوربيين كالمسيو بونة مورو مؤلف كتاب الاسلام والنصرانية فى افريقيا وغيرها

على أن بقية صالحة من نبغاء هذا العصر قد تأخرت بهم الحياة الى ان تجاوزوا عتبة القرن الحالى بل قضوا فيه

شوطا كبيرا وما انتقلوا للعالم الاخروى حتى خلفوا تآليف تشهد بفضلهم وتدل على براعتهم فى تلك الفنون

ناهيك بالطبيب الماهر سيدى عبد السلام العلمى هذا السيد الذى أخذ الطب العلمى بالقرويين ثم ذهب موفداً من قبل السلطان مولاى الحسن الى القاهرة حيث تعاطى الصناعة العلمية بالمستشفى الكبير ثم رجع نابغة من نوابغ الفن فالف كتابه فى البواسير وكتاب ضوء النبراس فى حل الفاظ الانطاكى بلغة فاس وذكر فى آخر كتابه هاذا انه شرع فى تاليف معجم للمصطلحات الطبية الجديدة ومقابلتها بالمفردات العربية واللهجة المغربية ولا ندرى أكمل تاليفه هاذا ام حالت المنية بينه وبين ذلك وكذلك المهندس الكبير أبو عبد الله الاغزاوى والفلكى الماهر سيدى ادريس البلغيثى والموسيقى البارع السيد محمد الايرارى الذى استمر يدرس اصول الموسيقى بظهر صومعة القرويين الى آخر العقد الثالث من هاذا القرن هاذا عدا الذين كانوا يضيفون لمعلوماتهم الدينية توسعا كبيرا فى بعض المناحى العلمية كالطبيبين الماهرين ابى الحسن علال بن عبد الله الفاسى وأبى محمد عبد السلام بنانى وغيرهما من نوابغ المتأخرين .

ولسنا ننكر مع هاذا ان الفوضى العلمية كانت سائدة فى هاذا العصر بجامعتنا وانه لم يكن هناك نظام متين يلزم باتباعه التلامذة والمدرسون خصوصا بعد ما تولى القضاء (١) جماعة من العلماء لم يكن همهم الا فى قضاء اغراضهم الشخصية والرمى بالمصلحة العامة جانبا فاخذوا يرشحون للعالمية كل من هو منحاش اليهم او متعلق بأكنافهم، وأصبحت المسألة مسألة جاه ونفوذ لا مسالة جدارة واستحقاق . وذلك ما أخر الحركة العلمية عن التقدم وجعل كثيراً من الناس يشعرون بعقم النتيجة وقبح الحال ولعل ذلك فى اسباب اخرى مما دعا جلالة السلطان مولاى الحسن لايفاد البعثات العلمية لمختلف الاقطار والجهات رغبة فى التزود من معارف الامم الحية والرجوع لاحياء معالم الجامعة وتسييرها وهو أيضا ما دعا بعض العلماء فى العهد الحفيظى الى اقتراح ادخال بعض النظم الجديدة فى التعليم . ولكن كثرة الثورات واشتغال الملك بتوطيد الامن وانزال السكينة حالت دون التفكير فى كل عارفة تعود على البلاد بالخير والصلاح

(١) كان القضاة قديما هم المكلفون باجراء ما يتعلق بالجامعة لكونهم المختصين شرعا بالنظر فى شؤون الاحباس وما اليها

حديث

عن معمل عصير العنب بالبيضاء

لايخفى ما لعصير العنب من الاهمية الكبرى والفائدة العظمى من حيث منافعه ومصالحه . فان خاصة التقوية والترويق فى عصارة العنب معروفة منذ القديم قال عنه اطباء العرب انه اجود مواد الفواكه تغذية وتقوية . وتلطيفاً وترويقاً يصلح هزال الكلى ويصفى الدم ويعدل الامزجة الغليظة . وينفع فى السوداء والاحتراق ويقول عنه الدكتور (نارود تسكي) فى كتابه (العلاج النباتى) انه مرطب منظف للقناة الهضمية يعطى فى الامراض الالتهابيه وسداد الكبد والطحال والامراض المعدية العصبية والتهاب الامعاء والامساك وهو مشروب ذو تاثير كبير ضد السعال وآفات الرئة

وما ذكره هذا الدكتور موافق تماماً لنتائج التجارب الطبية قديماً وحديثاً فقد تحقق ان العنب باصله الجوهرى مضاد للاختمار الذاتى ومساعد على اختزان المواد الازوتية والدهنية فى الجسم ومعظم هذه الخواص موجود بكثرة فى الغير المخمر منه محققا بل قد تزيده عملية استخلاص الكحول تقوية فى الاثر والخاصة وقد كان ولا زال

مستعملا عادة الاستشفاء به من أمثال القروح الالتهابية فى بعض مدن المغرب كفاس ومراكش وزرهون فانهم كانوا ولازالوا يصنعون منه للتدفئة والتلطيف ما يسمى بالصامت بيد انه لكونه عتيقاً ولم تدخل عليه التدابير العصرية المكتشفة لم يكن مامون التخمير

ثم ان للعصير مصالح اخرى مشتركة غير خافية فانه من الذ المشروبات ويشبه عصير الليمون لكن يزيد عليه بكون عصير الليمون لازال لم يكتشف اسلوب لعصره على كيفية تحفظ عصيره من التخمر ثم ان هذا العصير اذا حصل على ما ينبغى له من الشيوع كان أحسن وسيلة الى منع الناس من معاقرة الخمر واجدى كيفية

جهة اخرى شيدت هذه الشركة معملا بالبيضاء وارادت تدشينه على يد المسلمين فاستدعت لذلك نخبة من اعيانهم المتنورين ولم نتردد فى اجابتها حامدين لها التنبه الى تشريكنا فى مشروع اقتصادى عظيم ذلك التشريك الذى نتمنى ان تجرى العادة به فى المغرب الذى جل سكانه منا وقد اقتبل المدعوين ومن جملتهم النقيب العلامة مولاى عبد الرحمن بن زيدان والشهم الهصور الاستاذ سيدى محمد الجزولي والنابغة الاديب سيدى عبد العزيز اليعقوبى ورئيس قدماء تلاميذ البيضاء الاديب البائقة سيدى الحاج المختار بن عبد السلام والعالم الرحالة سيدى عبد القادر السودى والفاضل الاريب سيدى ادريس

البنيورى والشهم الامثل قائد مدينة فضالة وغيرهم من الذوات جناب البرنس مورى (Murat) بما يعهد منه من البشاشة واللطافة والبرنس هذا اشهر من ان يعرف به رجل من اكبر بيوتات اوربا من ولد مورى الشهير مشير نابليون بونبارت وملك نابلى مثر عظيم ولكنه شغوف بالعمل عوض الاتكال على ماله له اعمال كبيرة عادت بالفائدة وهو من الذين لهم أفكار فرنسية حقيقة أى انه محب للمسلمين عارف بحاجياتهم معضد لهم ومن أقواله عند الملاقاة قوله آرى من الواجب محاربة الكحول خصوصاً فى هاته الارض الاسلامية

نحاربها بما يجدون فيه من مادة العنب وخاصته وصفاته ورونقه من غير تخمير فيرجع على الوطن بثروة جديدة اذا هو خلف الاتاى المجلوب من الخارج لان العصير المذكور من نتائجه استهلاك محصولات الكروم المغربية الوطنية وفى ذلك من الفائدة ما فيه .

هذا الذى ادى الى تأسيس شركة بالبيضاء من فرنسويين وأهالي مسلمين لاكتشاف عصير عنبى مستخلص الكحول يخلف الخمور فى رواجها ويبدل للناس مضارها بمنافعه وفوائده المزدوجة جريا منهم وراء مكافحة الخمور من جهة وخدمة لمصلحة الاقتصاد المغربى من

بسائر الوسائل كما ارى من اللازم فى هذا الزمن الذى تحتاج فيه كل امة الى الاكتفاء بمحصولاتها ان تبذل جهدها فى استغلال ما تنبت أرضها

البرنس موری

أدب البرنس المذكور لمدعويه مادبة بهيجة على آخر طراز خلالها بقوارير وأكواب من عصير عنب مصنوع بفرنسا ذاكراً ان مذاقه لايشابه مذاق عصير المعمل البيضاوى الذى سنراه لان عصير فرنسا هو للتداوى به أكثر منه لشربه فان فيه مواداً كيماوية لانوجد فى عصير معمل البيضاء لانه باق على حالته الطبيعية كما اريد به

ثم بعد المادبة ذهبنا صحبة المضيف الهشوش الى مشاهدة المعمل وهناك استقبلنا مهندس أمريكي أتى به خصيصاً لهذا المشروع مع غيره من مستخدمين شمر بنا على فناء فسيح الارجاء معبد مرصوف نظيف مرونق أدانا فيما بعد مدخله الى مدرج منبسط لامراق له دار بنا على نفسه دورات فى صعده وانحداره . مستوى الموطأ افقي الاتجاه متين رصين حتى اذا دخلنا قاعة المعصر أبصرنا ثمة مختلف الجهازات والاعتدة وعجيب الادوات والالات والمجلات والدواليب ثم شرع المستخدمون فى عمليات التعصير

تبتدئ هاته العملية بافراغ كمية عنبية فى ظرف حديدى متسع الفوهة متضايق القعر . وظيفته فرك العنب وافراز حبو به الثمرية عن سيقاقه العنقودية . و بقعر هذا الظرف الحديدى فتحة تحتية يتدفق منها مفروك العنب الى انبوبة تكب فى قناة سمكية ترسله الى وعاء حديدى مرتفع عن ذى قبل يصعد اليه ذلك المفروك بشحمه وقشوره ونواته ليعمل فيه بدوره عملية طرح القشور والبذور

بعد تمام هذا الدور تصعد الماهية الى مرجل حار ساخن مرتفع عن الارض بمياتر لاحراق مكروب التخمر واستخلاص عنصر الاسكار ومادته وتمكث العصارة فى هذا المرجل البالغ فى حرارته الى ٥٢ درجة بضعة دقائق كافية لقضاء حاجة قتل المكروب

بعد هذا تسير العصارة فى قنوات الى ظرف آخر مكعب حيث يقوم هذا بمهمة مخضها وخضخضتها وتهيئتها للعصر . ومنه تنحدر العصارة فى ميازيب تتدفق منها منهمرة على اكياس قماشية كثيفة ذات مسام ضئيلة . اكياس غاية فى النظافة

هنا تبتدئ العملية فى تطويع الاكياس لتلقى العصارة الى ان تمتلىء متتابعة حيث يطوونها على شكل لفائف مختومة . بعضها فوق بعض . و بين كل لفافة واخرى حائل خشبي مربع مقدود فحينهذا تتزحلق الدكة الحديدية الحاملة لطبقات اللفائف الى أن تستوى متوازية تحت كتلة حديدية سميكة مضلعة مدلاة من اعلى . وعند تمام المسامتة بينهما تقع تلك الكتلة على الدكة ضاغطة ثقيلة عليها حيث بها تنهمر رشوحات العصير من مسام اللفائف فى شكل صبيب ثجاج . على مصفاة نضاحة فوارة ينزل منها الى الدنان التى تبقى فى بيت مبرد مثلوج مدة خمسة وأربعين يوما لترويقه والزيادة فى استيصال ميكروب التخمير ومنها الى القوارير حيث يخرج الى الاكواب رحيقاً مختوماً

الى هنا انتهت عملية التعصير وعندها تقدم الينا باكواب من مائع فاثر ناعم خاثره مترقرق نضناض ريق احمر قاتم فى لون الدم شفاف فى صفاء العين الا انه ذو فقاقع وحبب كنجوم السماء أو كبرد الثغر يكفى فى

الاشادة به ان يقال عنه انه عصير العنب عـذب سائغ للشار بـين

وعند الانتهاء من مشاهدة اقسام المعمل وانقضاء الوطر من التفرج على قاعاته وردهاته ودعنا مضيفنا الكريم بعد كلمـات شكر واستعانة من طرفه أجاب عليها بعبارات حكيمة جامعة نباهـة نابغة الرباط الاستاذ محمد الجزولي جاء من غررها قوله (يجب علينا معشر المغاربة تحبيذ وتشجيع معمل التعصير العائد عـلى وطننا بالـثروة والرفاهية العظيمة وشكر واعانة رئيس الشركة البرنس موري عـلى سهره لفائدة المغرب الذى يجب ان يكتفى فى حيـاته المادية بمحصولاته الارضية كبقية الشعوب الحية التى تتحدى العمل عـلى هذا المبدء)

عبد الاحد

عمل وطني اكيد

زيارة معمل عصير العنب

نرجو

من اخواننا المشتركين أن يؤدوا اشتراكاتهم كمـا نرجو منهم ان يذيعوا المجلة من بين اصدقائهم ومعارفهم تعميماً للنفع والفائدة

ومن حملة الاقلام وأهل الرأى ان يعينونا بافكارهم ومقالاتهم . وللجميع منا الشكر الجزيل .

حكم

الاعمى من يرى بغير عينه . والاصم من يسمع بغير أذنه

يتقى الناس بعضهم بعضاً فى الصغائر . ولايتقون الله فى الكبائر

من لم يكن فى عنان لذة أوتحت مهماز ألم . فليس على ميدان الحياة

الجماعات مطايا أهل المطامع تبلغهم الى منازل الشهرة